

الدرس : 05 - سورة يوسف - تفسير الآيات 30 - 42 ، ابتلاءات يوسف عليه السلام



1986-06-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

فضيحة امرأة العزيز بعد أن شاعت قصتها في المدينة :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ وصلنا في قصة سيدنا يوسف إلى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (30) ﴾

الحقيقة أول مرة تعرف أن سيدنا يوسف كان في بيت عزيز مصر ، وأن المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز ، وهذه طريقة في حبكة القصة رائعة جداً ، آخر إعطاء القارئ هوية هذا الرجل الذي اشتراه **﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ - من ؟ لا تعرفه - لِمَ امْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾** ، **﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾** بعد مرحلة متقدمة من القصة عرفنا أن هذه المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز ، وأن هذا الرجل الذي اشتراه هو عزيز مصر ، **﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾** يبدو أن هؤلاء النسوة هن من الطبقة الراقية ، رقيقاً دنيوياً ، أي من طبقة الأغنياء والمقربين إلى القصر . **﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾** يبدو أن قصة هذا النبي الكريم قد شاعت في المدينة ، وسريعاً ما تناقلتها الألسنة ، ورجفت بها القلوب ، وأرجفت بها القلوب **﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾** كأنهم يقصدون أن امرأة العزيز المرأة الثانية في هذا المجتمع ، المرأة الأولى امرأة الملك ، وامرأة العزيز هي المرأة الثانية ، على علو قدرها ، وعلى عظم شأنها تراود فتاها عن نفسه ، **﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾** أي وصل حبها له إلى شغاف قلبها ، وصلت محبته إلى أعمق ما في قلبها ، إلى شغاف قلبها ، ملك عليها قلبها ، أسرها ، استحوذ عليها ، ذهب بها كل مذهب ، **﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾** كأنهن يترفعن عن هذا المستوى ، كأنهن يقبحن عملها ، ويزرين بها ، وينحن عليها باللائمة : **﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾** لكن امرأة العزيز امرأة ناضجة عرفت أبعاد هذه الفضيحة ، وكيف أن قصتها مع فتاها قد شاعت في المدينة ، وقد لهجت بها الألسنة وقد لاكتها الألسنة ، وتناقلها الناس ، ولاسيما فيما بين الطبقة الراقية ، المجتمع الراقى بالمقياس الدنيوي ، من خلال هذا المجتمع المقرب إلى العزيز ، قالت في نفسها : لا بد من مكر يطفي هذه القصة .

المؤمن نظيف من الداخل لأن استقامته وعفته وأعماله الطيبة ترفعه عند الله :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ كأن نقل هذا الحديث مكر منهن ، كأن نقل هذا الحديث وإشاعته وتناقله شفاء لما في صدورهن ، كأن هناك منافسة بين امرأة العزيز وبقية النساء المقربات ، هناك منافسة خفية ، وهذا يؤكد قوله تعالى :

﴿ لَا يَأْتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُخَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) ﴾

[سورة الحضر]

الكفار إذا بدوا لك مجتمعين هم في الحقيقة متفرقون ، إذا بدوا لك متحدون هم في الحقيقة متنافسون ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : **﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾** ، فامرأة العزيز أرادوا بها كيداً عن طريق نقل هذه القصة ، وترويجها ، وإشاعتها ، وكثرة الحديث فيها من أجل أن يحطمن سمعتها ، إذ أن هناك عداً خفي ، فلما سمعت بمكرهن دبرت

لهن خطة وكيداً محكماً ، أرسلت إليهن ، الحقيقة هذا المجتمع الراقي يسمونه : المجتمع المخملي ، هذا المجتمع الراقي في نظر الناس هو عند الله ليس راقياً ، لأن هناك نظافة المظهر وهناك نظافة المخبر ، قد تعيش في بيت فخم ، وقد ترتدي أجمل الثياب ، وقد تستعمل أعلى العطور ، وقد ترتكب أجمل السيارات ، وقد تاكل ما لذ وطاب ، وقد يكون وقتك ممتلئاً بالمواعيد واللقاءات والحفلات والسهرات الممتعة والنزهات ، ولست عند الله شيئاً مذكوراً ، وقد يأتي إنسان فقير لا يعرفه معظم الناس فيخلص العبادة لله عز وجل ، ويستقيم في معاملته فهو عند الله نظيف ، كنت فيما مضى قد ضربت مثلاً : إنسان يعمل في مهنة عضلية مجهدة لو أنه يعمل في تصليح السيارات مثلاً ، ويرتدي ثياباً سوداء مثقلة بالشحوم ، لو أنه جاءته سيارة فأحكم تصليحها ، وأتقنه ، وأخذ أجر معتدلاً ، وقدّم خدمة ، هذا الوضع الذي هو فيه وضع نظيف جداً ، إنه نظيف من الداخل ، وقال لي رجل لا أشك أنّ غرفته التي يجلس فيها يز يدثمن ما فيها من أثاث عن مئات الألوف قال لي : إنّ عملي قذر ، يرتدي أجمل الثياب ، ويتكى على أفخر الأثاث ، ويستعمل أفخر العطور ، وقال لي بالحرف الواحد : إنّ عملي قذر ، فالقدارة والنظافة أيها الإخوة من الداخل ، المؤمن نظيف من الداخل ؛ استقامته وعفته ، ومروءته وشجاعته ، ونزاهته وأعماله الطيبة ، هذه التي ترفعه عند الله ، أما هذا المجتمع الذي يبدو لك مجتمعاً راقياً يتقلب في الوان النعيم فليس عند الله بشيء :

﴿ لَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسْنَ الْمِهَادِ (197) ﴾

[سورة آل عمران]

الخطة التي حاكتها امرأة العزيز للدفاع عن نفسها والإيقاع بنسوة المدينة :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴿ وَجِئْتِ الْيَهُودَ دَعْوَةً إِلَى الْقُرْآنِ لِيُحْكِمَ اللَّهُ لَهُمْ دِينَهُمْ وَمَا يَشَاءُونَ وَيَخْلُصَ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنَ الْعَذَابِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴾

أي جعلت لهن أماكن مريحة جداً ، أثاث فاخر ، طنافس وثيرة ، متكآت من ريش النعام ، ﴿ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَكْنَأً وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا ﴾ من أجل أن تستعملها في تقطيع الفاكهة أو تقطيع اللحم ، على كلّ قدم لهن طعام أو فاكهة ثمينة ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَكْنَأً وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ أمرته وهو الغلام في قصرها ، وعليه أن ينفذ ما تأمره به ، أمرته أن يخرج أمام هؤلاء النسوة اللاتي يمثلن نخبة المجتمع الراقي ، ﴿ وَقَالَتْ أُخْرَجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي عظمنه ، دُهنن لجمالها ، مفسرون كثيرون ورواة كثيرون أجهدوا أنفسهم في وصف هذا النبي الكريم ، وفي خلع صفات الجمال عليه ، مع أنّ المرأة لا يستهويها في الرجل جمال بني جنسها ، بل يستهويها في الرجل صفات خاصة به ، سيدنا موسى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) ﴾

[سورة القصص]

ما الذي أعجبها فيه ؟ قوته وأمانته ، هو ما الذي أعجبه فيها ؟ حياؤها ، ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمَشِي عَلَى اسْتِخْيَاءٍ ﴾ فالمرأة تحب في الرجل القوة والعفة ، والأمانة والحماية والرعاية والشجاعة ، فإذا بالغ الرجل في التزين والتجمل ، والتعطر والتكسر ، وترقيق الصوت ، وتزيين صدره ببعض الحلي ومعصمه ببعض السلاسل وتقليد النساء في زيهن ، فإله سبحانه وتعالى يلعن هذا الرجل لقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث عن ابن عباس قال :

((لَعْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُنْتَهَبِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَالْمُنْتَهَبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))

[صحیح البخاری]

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ بينما أعجبه فيها حياؤها ، مما يكون في آخر الزمان أن يرفع الحياء من وجوه النساء ، وتذهب المروءة من رؤوس الرجال .

((ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ الْخَمْرِ وَالْعَاقُ وَالذَّيْبُ الَّذِي يُؤْرَفُ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثُ))

[مسند الامام احمد]

هذا الذي يسمح لزوجته أن تخرج إلى الشرفة بقميص النوم هذا عند الله ديوث ، لأنه لا يغار على عرضه ، هذا الذي يسمح لزوجته أن تقدم المشروب لضيوفه ديوث لا يغار على عرضه ، إن كان الذين يرضون الفاحشة في أهلهم قلائل ، فالذين لا يغارون على أعراضهن أكثر .

بدأ حينما بالغ المفسرون والرواة في وصف هذا النبي الكريم بصفات جمالية منتزعة من صفات النساء وقعن في وهم كبير ، إنّ الذي أعجبها فيه عفته ، إنّ الذي أعجبها فيه قوته ، إن الذي أعجبها فيه طهارته ، وكان جميلاً ، ولكن أن نقصر ميزاته على جماله وحده فهذه مبالغة ليست واقعية ، على كلّ ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَكْنَأً وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ لنلا يذهب بكم الظن الى أنهم قطعن أيديهن تقطيعاً تاماً ، لا ، معنى قطعن أيديهن في اللغة جرح أيديهن ، الإنسان أحياناً يستعمل سكيناً حادة ، ويلهو مع إنسان في حديث ، فإذا به يجرح إصبعه ، معنى قطعن أيديهن أي جرحن أصابعهن ، ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ إنه فوق البشر لكمالها ، والأنبياء كذلك :

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خُلِقَتْ مِيزًا مِنْ كُلِّ عَسِيْبٍ كَانَتْكَ قَدْ خُلِقَتْ كَمَا تَشَاءُ

الله سبحانه وتعالى يهب أنبياءه جمال الخلق والخُلق ، أي أصحابه الكرام سحروا به ، أخذوا به ، أخذ كل قلوبهم ، ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، وسحروا

بكمالهِ ورقتهِ ، وحملة وشجاعتهِ ، وذكائه وفطنتهِ ، ورحمته وعدله وإنصافهِ ، وهكذا المؤمن ، لا أقبل أن يكون المؤمن بغيباً عند الناس ، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً ، كيف يكون هذا صحيحاً وهو متصل بالله عز وجل ؟! الله الأسماء الحسنى ، وكل من اتصل بالله عز وجل لا بد من أن يشتق من أسمائه الحسنى ، يجب أن يكون المؤمن محبوباً لتواضعهِ ، لإنصافهِ ، لعفته ، لاستقامته ، ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ هذا ، إنكم تحدثتم عني في غيبي ، وأنتم علي باللائمة من دون أن تعرفوا حقيقة هذا الفتى الذي شغف قلبي به حباً ، هذا الذي شغف قلبي به حباً أمعي حق بهذا ؟ ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ منتهى الوقاحة أن تعلن عن شغفها ، وعن غريزتها ، وعن حاجتها إليه أمام نسوة عليه القوم .

الامتحان الكبير الذي وقع فيه سيدنا يوسف :

﴿ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ وهذه أول برائة له عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فاستعصم لا كما يقول بعض المفسرين : ولقد همّ بها ، أي بلغ منها مبلغ الرجال ، لا ، هم بدفعها ، أو هم بالهروب منها ، أو هم بضربها ، على قول بعض المفسرين ، لأن عملها كان في منتهى الوقاحة ، ﴿ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ لا زالت مصرة على أن تراوده عن نفسه مرة ثانية ، لا زالت مصرة على أنها لا بد من أن تصل إليه إما بالحسنى ، وإما عن طريق السجّن والتعذيب ، ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (32) قال رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿ لم يقل الله عز وجل : مما تدعوني إليه ، كان مع واحدة فصار مع المجموع ، في بعض التفسيرات أنّ كل من حضر هذا الحفل البيهيج بدأ يقنعه على حدة أن يستجيب لنزوتها ، لنزوة امرأة العزيز ، فكان مع واحدة ، فصار مع المجموع . ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ هنا نقف قليلاً ، إذا أمرت بمعصية أين أنت من هذا النبي الكريم ؟ هل تقول : لا أستطيع يا أخي ؟ ما تمكنت ، أمرت بهذا ، أم تقول : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ هذا امتحان دقيق ، قد يوضع إنسان في موضع صعب ، قد يؤمر بمعصية الله ، قد يؤمر بعمل لا يرضي الله ، يجب أن يكون موقفك واضحاً ، يجب ألا تأخذك في اللومة لائم ، يجب أن ترى أنّ الله هو كل شيء قدير ، ولا إله إلا الله :

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (2)

[سورة فاطر]

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (84)

[سورة الزخرف]

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (4)

[سورة الحديد]

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيُّمٌ خَلْقٍ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (54)

[سورة الأعراف]

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (70)

[سورة القصص]

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُتُمْ عَلَىٰ آجِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَافِظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (64)

[سورة يوسف]

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (20)

[سورة غافر]

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (37)

[سورة الأحزاب]

﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ هذا هو التوحيد ، أي ياربي أنا أصمد أمام كيدهن ، وأمام إغرائهن بمعونتك ، فإذا تخليت عني لا أستطيع أن أصمد أبداً ، إن مقاومتي تنهار إذا تخليت عني ، أي :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (5)

[سورة الفاتحة]

أي لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا حول عن معصية الله إلا بالله ، ولا قوة على طاعته إلا به ، هذا هو التوحيد ، هذا الذي يقول : أنا لا أفعلها أبداً ، هذا مشرك ، ياربي أعن علي

طاعتك، ياربي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ياربي أنا بك واليك، من أنا حتى أقول: أنا لا أفعلها، هذا هو الشرك، أشركت نفسك مع الله عز وجل، لو عرفت ما عند الأنبياء من تواضع لله عز وجل، ومن افتقار إليه، ومن استسلام لأمره لتأديت بهذا الأدب الرفيع ﴿قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْتُ عَنْيَ كَيْدَهُنَّ أَصْنُبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ، قال ابن عطاء الاسكندري: رُبَّ معصية أورتت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورتت عزاً واستكباراً، قد يطيع الإنسان ربه فينتبه بهذه الطاعة على الناس، هذا التيه يورثه العجب، وهذا العجب يحجبه عن الله سبحانه وتعالى، لذلك الموحد هو المفقر، ﴿رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْتُ عَنْيَ كَيْدَهُنَّ أَصْنُبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ربنا عز وجل قال في هذه القصة بالذات:

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُونِهِ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)﴾

[سورة يوسف]

وقال في موطن آخر:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)﴾

[سورة النساء]

الشیطان ومن معه كيد ضعيف، لكن المرأة كيدها عظيم، لأن لك عند المرأة حاجة، وقد تكون هذه المرأة زوجتك، لك عندها حاجة تستغل هذه الحاجة لتحملك على معصية، لتنفذ ما ربه، لتفعل ما تشاء، لتكون هي المسيطرة، لتسيّر البيت وفق أهوانها، لتفعل ما تفعل من أجل أن تظهر، فإذا هذا على حساب دينك، لذلك إياك أن تنهار مقاومتك أمام كيدهن: ﴿إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ﴾.

من كان صادقاً في طلب طاعة الله والبعد عن معصيته أعانه الله على طاعته:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ لماذا استجاب له ربه فصرف عنه كيدهن؟ لشيء واحد، هو لأنه كان صادقاً في هذا الطلب، أنت أيها الأخ الكريم لا تملك إلا الطلب، إن عرف الله عز وجل صدق طلبك، وإصرارك على طاعته، وإصرارك أيضاً على بعدك عن معصيته يستجيب لك: قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: "من صدق في ترك شهوة؛ ذهب الله بها من قلبه؛ والله أكرم من أن يُعَذِّبَ قلباً بشهوة تُرِكَتْ له".

[الزهدي الكبير للبيهقي]

إذا انس الله منك صدقاً في طلب طاعته، وصدقاً في البعد عن معصيته، أعانك على طاعته، وصرف عنك معصيته، فإن كنت ضعيفاً، إن كنت متردداً، إن كنت ميالاً إلى المعصية تخلّ عنك، فتغلب عليك الشيطان، ففعلت المعصية، ليكن هذا النبي الكريم قدوة لك في مواجهتك للمغريات، ﴿قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْتُ عَنْيَ كَيْدَهُنَّ أَصْنُبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ إن صرف الله عز وجل كيدهن عنه كان بطريقتين؛ الأولى: أن الله عز وجل ألقى في قلوبهن اليأس من الوصول إليه. والطريق الثاني: أن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبه بغضهن، هو كرههن وهن ينسن منه، هذا فعل الله عز وجل.

الله تعالى سميع لقولنا عليم بحالنا:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ سميع لقولك، ولو لم تقل عالم بحالك، لو أنك لم تقل، لكنه في نفسك، في أعماق نفسك لا تريد أن تعصي الله، عليم، إيمان تقول، وإن لم تقل يعلم ما في نفسك. أحياناً الإنسان ينسى تعقيبات الآيات، يقول لك: إنه هو الغفور الرحيم، غير صحيحة، إنه هو السميع العليم، لأنك أيها الإنسان إمان تدعوه فيسمعك، وإمان أن تسكت فيعلم حالك، إنه هو السميع العليم، أي إذا واجه أحدنا مشكلة أو ضغطاً أو إكراهاً أو إغراءً يستطيع أن يدعو الله سرا وشفتاه مضمومتان، في قلبه ياربي ليس لي إلا أنت، ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، اصرف عني هذا الشر، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

خطة عزيز مصر لتطويق الحادثة وتقليص الإشاعة:

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ﴾ لم يقل الله عز وجل: بدا لهم، بدا لهم، دخل العزيز في هذا الموضوع، العزيز زوجها والمستشارون والخبراء والمقربون إليه تداولوا في هذه الفضيحة، وهذه السمعة السيئة التي جلبت لهم المذمة والعار، ماذا يفعلون؟ إن هذه الزوجة تحت سمع زوجها وبصره، وباله من زوج غيور! تحت سمعه وبصره مصرة على أن تصل إليه، ولقد دعت النسوة في المدينة أيضاً تحت سمعه وبصره، ولا بد من أن قولها قد وصل إليه: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ﴾ فأبي زوج هذا؟ وأية جولة هذه؟ وأية غيرة ينطوي عليها؟ هذا عزيز مصر، لكنه استشار المقربين والأبعاد، والكبراء والصغار ومن في الحاشية، بدا لهم جميعاً أنه من أجل إطفاء هذه الفتنة، وتطويق هذه الحادثة، وتقليص هذه الإشاعة، لا بد من أن يسجن هذا الفتى البريء، لم يستطع أن يصل إلى زوجته، لم يستطع أن يسيطر على زوجته، فكان الحل ظالماً، أمر بسجن هذا الفتى البريء الذي ما خانته قط، والذي يقطر براءة وطهراً وعفافاً.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ أية آيات؟ أية أن قميصه قد من دبر؟ أية ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ كل هذه الآيات الدالة على طهارته وعتقه واستعصامه بالله عز وجل على الرغم من كل ذلك بدا لهم أن يسجنوه، ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُنَّ حَتَّىٰ جِئْنَ﴾ إلى أجل غير مسمى، إلى أن تنطفئ الفتنة، إلى أن ينقطع الحديث

في هذا الموضوع ، إلى أن تنسى امرأة العزيز هذا الغلام ، ودخل السجن ، وسوف نستنبط بعد قليل أنه كان في السجن نبياً ، كما أنه نبي خارج السجن هو نبي داخل السجن بمعرفته ، بإحسانه ، بمعرفته للأخبرين ، برحمته ، الإنسان هو هو ، هذا الذي تتبدل أخلاقه من ظرف إلى ظرف أخلاقه مزيفة ، هذا الذي يبدو في الرخاء وديعاً ، وفي الشدة وحشاً هذا ليس أخلاقياً ، هذا الذي يبدو في الغنى سموحاً وفي الفقر بخيلاً ليس كريماً ، لكن البطولة أن تكون أنت أنت في الرخاء والشدة ، في النعيم والشقاء ، في الصحة والمرض ، في القوة والضعف ، في إقبال الدنيا وإدبارها ، خارج السجن وداخل السجن هو هو ، نبي .

جوهر الدين في الإحسان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ هناك قصة يرويها القرطبي في تفسيره أن الملك كان عنده طبياح كرئيس الطهاة ، ورجل يقدم له الشراب ، يبدو أن هذا الملك عمر طويلاً وحكمه طويلاً ، فانتمر عليه بعضهم في قتله عن طريق دس السم في طعامه وشرابه ، فالطبايح وضع السم في الطعام ، أما صاحب الشراب فأبى ، فلما قدم الطعام للملك جاء صاحب الشراب وقال : احذر يا مولاي أن تأكل الطعام فإنه مسموم ، فقال الطبايح : يا مولاي والشراب أيضاً مسموم ، قال الملك : اشرب فشراب صاحب الشراب ، فتأكد الملك أن صاحب الشراب صادق ، فأمر الطبايح أن يأكل من الطعام فأبى ، فلما أبى أطعم الطعام لحبوان فمات من توه ، أمر الملك أن يساق الفتان إلى السجن ريثما يتم التحقيق .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ الخمر هنا يعني العنب ، هذه كأن تقول مثلاً : رعيننا الغيث ، أي رعيننا كلاً أنبتته الغيث ، عصرنا عنياً صار خمرأ ، ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أي أرى في المنام ، ﴿ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينًا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ ما تأويل هذه الرويا ؟ ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ محسن ، حتى في السجن محسن ، وهو في آلامه محسن ، وهو في تقييد حر بيته محسن ، وهو مع السجناء محسن ، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، هذا الذي يسيء ويصلي لا يصلي ، جوهر الدين في الإحسان ، هذا الذي بكرهه الناس ليس مسلماً ، هذا الذي يبغضه الناس ليس مؤمناً ، هذا الذي يتأذى منه الناس لا يعرف الله عز وجل ، هذا يصلي صلاة شكلية لا شأن لها عند الله ، هذا يصوم صوماً شكلياً لا قيمة له عند الله ، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، من شاء صام ، ومن شاء صلى ، ولكنها الاستقامة .

وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه : من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً .
عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ بِمُحْسِنٍ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ .))

[البخاري]

حكمة سيدنا يوسف في الدعوة إلى الله :

﴿ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ استمعوا أيها الإخوة الأكارم إلى هذا القول الفصل في الدعوة إلى الله ، نبي كريم يسأل عن تفسير الرؤيا وهو في السجن ، هو في أشد حالاته ضعفاً لا ينسى الله عز وجل ، يدعو إليه ، هذا يذكرني بدعاء سيدنا يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت في ظلمات ثلاثة ، في ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت :

﴿ فَادْعُ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) ﴾

[سورة الأنبياء]

افحص نفسك في ساعات الشدة أتذكر الله عز وجل ؟ فاستجاب له ربه :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَبْنَا مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) ﴾

[سورة الأنبياء]

وهذا النبي الكريم وهو في السجن ، هنا استنباطات كثيرة جداً ، أو لا : هذان الفتان جاءه بسؤال ، فالسؤال يشغل بالهما ، فكي يطمنا وكى يستمعنا إليه ، كي يصغيا إليه ، قال : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ تفسير هذين المنامين سيحصل بعد قليل ، سأفسر لكما هذين المنامين قبل أن تاكلوا الوجبة الثانية ، اطمنا . أي إذا جاءك إنسان بحاجة ، وأنت أردت أن تعظه لا يستمع إليك ، اقض له الحاجة أو لا ، ثم عظه ثانياً ، أو عده بإنجاز هذه الحاجة حتى يطمئن ، عندئذ قدم له الدعوة الخاصة ، هذه النفس مشغولة ، قلبه مشغول ، مغلق ، فالذي يعظ الناس في الأوقات الحرجة وهم مشغولون هذا لا يملك حكمة أبداً ، لا بد من أن يكون القلب فارغاً لك ، لا بد من أن تكون ساحة النفس فارغة لموعظتك ، لا بد من أن يكون هناك فراغ كي يتلقى الإنسان هذا الحق ، فإذا كانت ساحة النفس مشغولة ، أو كان القلب منشغلاً لا بد من قضاء حاجته قبل دعوته إلى الله ، سيدنا يوسف كان حكيماً جداً ، طمانهما ، ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ نباتكما أنا بتأويله ، لكنه مؤخر ، ﴿ نَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ إذا كان الإنسان في بحبوحة ، أو على شيء من العلم ، أو على شيء من الواسمة والجمال ، أو على شيء من الجاه ، إذا قال : أنا ، فقد أشرك ، إذا قال : لقد تفضل الله علي ، لقد أكرمني ربي ، لقد يسر الله لي هذا البيت ، لقد أكرمني ونجحت في هذه الشهادة ، لقد حباني الله بهذه الوظيفة ، لقد متعني الله بهذه الصحة ، لقد رزقني الله هذه الزوجة ، هكذا المؤمن يقول ، ليس من باب الأدب ، ولكن من باب الحقيقة ، هذه هي الحقيقة ، قال : ﴿ نَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ أنا مفتقر له - إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرين ﴾ أي عاش سنوات طويلة في قصر عزيز مصر ، هؤلاء وصفهم هذا النبي الكريم بصفتين دقيقتين ، قال ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يؤمنون بالله ، يؤمنون بالمذات ، يؤمنون بالدنيا ، يؤمنون بما فيها ، أما بالله فهم عنه غافلون ، هم عنه معرضون ، جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم ، جعلوا قيم الله عز وجل وراء ظهورهم ، جعلوا أوامره خارج اهتمامهم ، جعلوا نواهيهم ضمن رغباتهم .

الدين توحيد كله :

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - اتبعت هؤلاء - مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ جوهر هذه الدعوة هو التوحيد ، الدين كله توحيد ، الدين كله ملخص في قوله تعالى :

﴿ قَاعَلِمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعْفَرَ لِدُنْيِهِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّمًا (19) ﴾

[سور محمد]

هذا هو الدين ، ما كان لنا ، أي يستحيل علينا ، مستحيل أن نشرك ، (ما كان) من أشد أنواع النفي ، لا نشرك ، ولا نريد أن نشرك ، ولا يمكن أن نشرك ، ولا يعقل أن نشرك ، كل هذه الأدلة الدالة على عظمة الله وبعدها نشرك ؟ ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ هذه النعمة التي أنتم فيها نعمة سماح الحق ، نعمة الهدى هذه هي الفضل الحقيقي ، أي مهما تناولنا من الطعام ما لذ وطاب ، ومهما كانت بيوتنا فاخرة ، ومهما كانت أموالنا طائلة ، ومهما كنا سعداء في بيوتنا ، ومهما كان دخلنا كبيراً لا بد من مفارقة الدنيا ، وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لا بد من أن نوسد الثرى ، تقول الأرض : يا من تمشي على ظهري لا بد من أن أضمك إلى صدري ، لا بد من أن أضمك إلى بطني ، يا من تمشي على ظهري ، اذهبوا إلى المقابر ؛ تجار ، علماء ، موظفون ، أشخاص مهمون ، كانوا أحياء مثلنا ، لهم بيوت ، لهم زوجات ، لهم مكانة اجتماعية ، كانوا يأكلون ، ينتزهون ، يسهرون ، يمرحون ، هم تحت أطباق الثرى ، ونحن سوف نكون مثلهم إن عاجلاً أو آجلاً ، ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ هذا هو الفضل الحقيقي ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

طريقة بليغة في الدعوة إلى الله :

طريقة في الدعوة إلى الله بليغة ، طرح عليهم سؤالاً ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ﴾ تحبباً لهما ، وإيناساً لقلبيهما ، ناداهما بالصاحبين ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَقَرَّبُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي أن تخاف من زيد ، ومن عبيد ، ومن سعيد ، ومن عمر ، ومن خالد ، أم أن تخاف من الله وحده ؟ أن ترضي زيدا أو عبيداً أو فلاناً أو علاناً أو أن ترضي الله وحده ؟ من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد :

﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُكُمْ أُولَٰئِكَ فَتَنَ كَيْدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (13) ﴾

[سورة التوبة]

اعمل لوجه واحد يكفك الوجه كلها ، من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس ، من حسنت سريره جعل الله علانيته حسنة ، ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَقَرَّبُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ معنى القهَّار أمره هو النافذ ، أمره هو الذي يطبق ، ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ في اليابان يعبدون الميكادو ، يرونه إلهاً ، في لبنان وضعوا على قمم الجبال تماثيل للعرءاء ، وقالوا : هذه سيدة لبنان ، إنها تحميها ، هل حتمت من الحرب الأهلية ؟! ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ليس لها قوة عقلية مقنعة ، وليس لها قوة مادية أسرة ، ليست منطقية ولا واقعية ، إن إلا أسماء سميتوها ، إذا قام أحدكم ، وكتب اسمه ، وكتب تحت اسمه مثلاً : وزير دفاع ، هل يعني ذلك أنه أصبح وزير دفاع ؟ هي كلمة كتبتها ، هل لها حقيقة ؟ هل هناك من أحد يأمر بأمرك ؟ هل هناك من أحد يستجيب لك ؟ هل تأخذ على هذه البطاقة درهماً واحداً ؟ إن هي إلا أسماء سميتوها ، إذا كتبت أحدهم كلمة بحر على قطعة من ورق ، هل هذا هو البحر ؟ هذه كلمة بحر ، هذه كلمة ، إن كأساً من الماء بيل ثوبك ، أما إذا كتبت مليون بحر ، اكتب المحيط الأطلسي مع المحيط الهادي مع البحر المتوسط مع القطب الشمالي ، وضع هذه الورقة في جيبك تبقى جيبك جافة ، هذه كلمة هذه ، حبر على ورق ، أي هذا الذي يعبد إنساناً من دون الله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ما أعطها قوة ، لم يعطها قوة عقلية مقنعة ، أي هذه القبيلة التي جعلت رباً لها من تمر فلما جاعت أكلته ، فقالوا : أكلت وذر بها ، وهذا الذي جاء ليعبد صنماً أرى على رأسه بلاء ، وعرف أن ثعلباً قد بال على رأسه ، فقال :

أرب بيول الثعلبان برأسه لقدضل من بالث عليه الثعلاب

هناك أشياء غير مقنعة ، البقرة في الهند إذا سارت في عرض الطريق قطعت السير ساعات طويلة ، إذا دخلت إلى بقالية تأكل هذه البقرة ما لذ وطاب من الفاكهة ، وصاحب البقالية ممتن أشد الامتنان لأنها مقدسة ، يأخذون روث البقر ، ويضعونه في غرف الاستقبال في الأعياد تبركاً بها ، يكحلون أعينهم ببولها ، خرافات ، ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ هذه الآلهة كلها باطلة ، لا تقدم ولا توخر ، ولا تنفع ولا تضر ، كله باطل في باطل .

الحكم كله لله عز وجل :

﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ حتى السحر . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالحَسَنَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عن عبد الله بن مسعود قال : مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ سَاحِرًا أَوْ كَاهِنًا فَسَالَه فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .))

﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ ، من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، ولا دعاء أربعين ليلة ، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ ، هذا المتشائم من رقم معين ، من لون معين ، هذا باطل ، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا هو الدين القيم ، الدين الخضوع ، فلا تخضع إلا للحق ، ولا تخضع إلا للذي خلقك ، لا تخضع إلا لمسيب الكون ، وهو الله رب العالمين ، لا تخضع إلا لمن بيده الأمر ، لا تخضع إلا لمن بيده الخلق والأمر ، لا تخضع إلا لمن بيده الحكم ، لا تخضع إلا لمن بيده الحياة والموت ، لا تخضع إلا لمن بيده الرزق ، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ، هذا هو الدين ، عندما لا تأخذ الإنسان في الله لومة لائم ، لا يطيع مخلوقاً في معصية الخالق ، مع الله دائماً ، مع أمره حيث أمره ، وإذا نهاه عن شيء ابتعد عنه ، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ تقول لي: عادات ، تقاليد ، تيار عام ، هناك ضرورات ، المجتمع هكذا يريد ، زوجتي صعبة ، بناتي لم يرضوا معي ، هذا كله كلام مردود : ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ، أنت بذلك توازي مخلوقاً بالخالق تماماً كمن يدخل في سلك الجيش ، ويتلقى أمراً من قائد الجيش ، وأمر من عريف ، وأمر العريف متناقض مع أمر قائد الجيش ، فيستجيب لأمر العريف ويعصي قائد الجيش ، ولا يعرف مغبة هذا العمل ، هذا مثل قريب ؛ خالق الكون قال لك : افعل ولا تفعل ، يأتي إنسان جاهل ، مغرض ، فان ، يقول للذي أمرك الله أن تفعله لا تفعله ، وللذي نهاك أن تفعله افعله ، أين أنت ؟ أين عقلك ؟ أين تفكيرك ؟

تفسير رؤيا صاحبي السجن :

جاء الآن الوقت المناسب لتفسير الرؤيا ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْئَلُنِي رِيبَهُ خَمْرًا﴾ أي أما أحدهما فينجو ، ويخرج من هذا السجن ، ويعود إلى عمله في القصر سابقاً للملك ، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْنَبُ - لا بد من أن يقتل - فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضِي الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي من معجزات هذا النبي الكريم أن الله سبحانه وتعالى أطلعه على بعض الغيب :

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ مِنْ مَثَرًا (27)﴾

هذا النبي هكذا قال ، قضى الأمر ، أي هذا الأمر كأنه وقع وانتهى .

ضرورة السعي والأخذ بالأسباب :

سيدنا يوسف الآن حينما عرف أنّ أحد الصاحبين سينجو وسيعود إلى عمله في القصر ، ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ائْتُرْنِي بِعَذْرٍ رَّيْكَ﴾ أي بين الملك قصتي وبراءتي ومظلمتي ، هنا حول هذا الموضوع وقف المفسرون وفتات طويلة ، بعضهم قال : إنّ الله سبحانه وتعالى عاقب هذا النبي الكريم لأنه طلب من هذا الرجل أن يذكره عند الملك ، ونسي أن يطلب هذا من الله عز وجل ، هذا بعض الأراء ، لذلك في بعض التفاسير كلمات يمكن أن نقرأها عليكم : جاءه جبريل فقال : يا أخا المنذرين ، مالي أراك بين الخاطئين ؟ يا طاهر ابن الطاهرين يقرئك ربك السلام ويقول لك : أما استحييت إذ استغثت بالأدمنين ؟ وعزتي لألبيتك في السجن بضع سنين ، قال : يا جبريل أهو عني راض ؟ قال : نعم ، قال : إذا لا أبالي ، قول .

بعضهم قال : جاءه جبريل فقال له : يا نبي الله من خلصك من القتل على أيدي إخوانك ؟ قال : الله ، قال : فمن أخرجك من الجب ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : كيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ وجاء في بعض الأحاديث الشريفة أن :

((رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها لذكرني عند ربك ما لبثت في السجن ما لبثت ، ورحم الله لو طأ أن كان ليأوي إلي ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوة أو أوي

إلى ركن شديد قال فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه.))

لكن الحقيقة أن هذا الحديث ضعيف جداً ، هكذا قال الحافظين كثير ، والعلماء يقولون : الإنسان مطالب أن يسعى ، إذا كان في ضائقة وفي مظلمة ، وعرف أن هناك شخصاً له يد طولى ، فإذا عرض عليه مظلمته فلا ضير عليه ، إذ نحن نرجح أنّ هذا النبي الكريم ما وقع في خطأ أبداً ، هذا من باب السعي ، هذا من باب الأخذ بالأسباب .

والحمد لله رب العالمين